Kufa Journal of Arts
September 2025. No. 65, P 102-118
Faculty of Arts, University of Kufa.

مجلة آداب الكوفة
العدد ٦٥، ايلول ٢٠٢٥م، ص ١٠٢ ـ ١١٨
كلية الآداب، جامعة الكوفة

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

النقد الديني وتحولات المعرفة في فكر الإمام زيد بن علي قراءة تحليلية أركيولوجية

د. جمال الشامي
جامعة الضالع – اليمن
Alshami122@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥\٥\١٤ تاريخ القبــول: ٢٠٢٥\٦\١٠ تاريخ النشر: ٢٠٢٥/٩/١

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية نقدية لفكر الإمام زيد بن علي، بالاستفادة من مفاهيم منهج أركيولوجيا المعرفة كما طوّرها ميشيل فوكو، في محاولة للكشف عن البُنى المعرفية والسياسية المؤثرة في خطابه الديني، وينطلق البحث من فرضية أن الإمام زيد بن علي قدّم خطابًا دينيًا نقديًا متقدمًا، لا يقل حداثة عن المناهج النقدية المعاصرة، حيث واجه السلطة السياسية والدينية عبر نقده العميق للتأويل السلطوي للنص القرآني، ويتناول البحث المفاهيم الأساسية في فكر الإمام زيد، مثل التحريف والنقض والتقى والضلالة، بوصفها أدوات تأويلية استُخدمت لتفكيك السلطة المعرفية الرسمية وإنتاج خطاب مقاوم يسعى لاستعادة المعنى الأصيل للنصوص الدينية، ويخلص البحث إلى أن منهج الأركيولوجيا يفتح أفقًا جديدًا لإعادة قراءة التراث الإسلامي من منظور نقدي يربط بين المعرفة، والسلطة، وتأويل النص.

الكلمات المفتاحية: الإمام زيد بن علي، النقد الديني، التحليل الأركيولوجي، السلطة المعرفية، التحريف والنقض، التأويل الديني، ميشيل فوكو، الخطاب الزيدي، المعرفة والسلطة، الخطاب الديني.

Religious Critique and Epistemic Transformations in the Thought of Imam Zayd ibn Ali An Archaeological Analysis

Dr. Jamal Al-Shami
University of Al-Dhalea- Yemen

Received Date: 4/5/2025, Accepted Date: 10/6/2025, Published Date: 1/9/2025

Abstract:
This study aims to present a critical analytical reading of the thought of Imam Zayd ibn Ali, drawing on the conceptual framework of Michel Foucault's "archaeology of knowledge" as a tool to uncover the epistemic and political structures that influence his religious discourse. The research is based on the hypothesis that Imam Zayd ibn Ali formulated an advanced critical religious discourse, no less modern than contemporary critical methodologies, through his profound critique of the authoritarian interpretations of the Qur'anic text that upheld political and religious power. The study examines key concepts in Imam Zayd's thought—such as taḥrīf (distortion), naqḍ (deconstruction), taqwā (piety), and ḍalālah (deviation)—as hermeneutical tools employed to dismantle official epistemic authority and construct a counter-discourse aimed at recovering the original meaning of sacred texts. The study concludes that the archaeological

DOI: https://doi.org/10.36317/kja/2025/v1.i65.19509
Kufa Journal of Arts by University of Kufa is licensed under a Creative Commons Attribution 4. 0 International License.
مجلة آداب الكوفة - جامعة الكوفة مرخصة بموجب ترخيص المشاع الإبداعي ٤,٠ الدولي.

method opens a new horizon for rereading the Islamic tradition from a critical perspective that links knowledge, power, and textual interpretation.

Keywords: Imam Zayd ibn Ali, Religious Criticism, Archaeological Analysis, Epistemic Authority, Taḥrīf and Naqḍ, Religious Hermeneutics, Michel Foucault, Zaydi Discourse, Knowledge and Power, Religious Discourse.

المقدمة:

يمثل فكر الإمام زيد بن علي محطة محورية في تاريخ الخطاب الديني الإسلامي، لما تميز به من نقد عميق للسلطة الدينية والسياسية، ومن نزعة تأويلية تسعى إلى تحرير النصوص من هيمنة التفسير الرسمي.

وفي زمن كثُرت فيه القراءات الجامدة للنصوص، تأتي هذه الدراسة لتُسلّط الضوء على فكر الإمام زيد لا بوصفه تراثًا طائفيًا، بل بوصفه خطابًا تحليليًا واعيًا، يربط بين النص والسياق، بين المعرفة والتحريف، بين الهدى والضلالة.

تسعى هذه الدراسة إلى فهم كيف مارس الإمام زيد عملية تأويل نقدي للنص القرآني، وكيف واجه ما رآه تحريفًا ممنهجًا قامت عليه سلطات الحكم والتفسير.

وقد استعانت الدراسة بمنهج "أركيولوجيا المعرفة" بوصفه أداة تحليلية تُساعد على تفكيك بنية الخطاب الديني وفهم تحوّلاته.

ينطلق البحث من فرضية أساسية: أن خطاب الإمام زيد لا يقل حداثة في بنيته النقدية عن المناهج المعاصرة، وأن قراءته للنص القرآني تكشف عن وعي معرفي يُقاوم النمطية، ويؤسس لتقليد تأويلي أصيل.

إشكالية البحث:

يتناول هذا البحث فكر الإمام زيد بن علي بوصفه خطابًا دينيًا نقديًا واجه السلطة السياسية والدينية في عصره، وعبّر عن وعي معرفي يتجاوز النقل السائد إلى مساءلة آليات التأويل والتحريف.

يعتمد البحث على تحليل نصوص الإمام زيد لا بوصفها تعبيرًا عن معتقد، بل كبنية فكرية نقدية تسائل المعرفة الدينية وتفكك مرجعياتها.

وتأتي الإشكالية المركزية:

كيف يعبر خطاب الإمام زيد عن وعي نقدي ديني تجاه السلطة والمعرفة؟ وكيف يمكن أن يساعد المنهج الأركيولوجي في تحليل هذا الخطاب؟

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

أهمية البحث:

يكتسب هذا البحث أهميته من عدة جوانب معرفية ومنهجية، أبرزها:

١- إبراز فكر الإمام زيد بن علي كمشروع ديني نقدي يتجاوز الطابع المذهبي الضيق، ويُقدَّم بوصفه رؤية تأويلية بديلة تسعى إلى مقاومة التوظيف السلطوي للدين.

٢- كشف التحولات المعرفية في الخطاب الزيدي المبكر، من خلال تتبع المفاهيم والتصورات التي شكّلت بنية الوعي الزيدي في لحظة تاريخية مفصلية.

٣- توظيف أدوات تحليلية حديثة، وتحديدًا منهج أركيولوجيا المعرفة كما طوّره ميشيل فوكو، في سبيل فهم أعمق لبنية الخطاب الديني الزيدي، وآليات تشكله في سياق السلطة والمعرفة.

٤- المساهمة في تجديد قراءة التراث الإسلامي من داخله، بعيدًا عن القراءات التبجيلية أو الاستشراقية، وذلك عبر مقاربة نقدية تستنطق النصوص وفق سياقها الفكري والسياسي.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف المعرفية والمنهجية، منها:

١- تحليل البنية المعرفية والنقدية في فكر الإمام زيد بن علي، بوصفه مشروعًا يتفاعل مع النص والواقع معًا.

٢- دراسة الكيفية التي واجه بها الإمام زيد عمليات تحريف النصوص وتأويلها في خدمة السلطة، والكشف عن مواقفه إزاء التفسير الرسمي السائد.

٣- استخدام منهج الأركيولوجيا لفك طبقات الخطاب الديني، والكشف عن التراكمات التأويلية التي أسهمت في إعادة تشكيل المعنى الديني داخل سياق سلطوي.

٤- إعادة بناء تصور جديد للخطاب الزيدي في ضوء أدوات نقدية حديثة، تسمح بقراءته كخطاب مقاوم، لا كإرث طائفي مغلق.

منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على مزيج من المناهج التحليلية التي تتكامل في مقاربة خطاب الإمام زيد بن علي، وهي على النحو الآتي:

- **التحليل الأركيولوجي**: يُستخدم هذا المنهج بوصفه أداة مساعدة لفهم كيفية تشكُّل الخطاب الديني في فكر الإمام زيد، واستكشاف الطبقات المعرفية والسياسية الكامنة خلف إنتاج المعنى، انطلاقًا من مفاهيم ميشيل فوكو حول العلاقة بين المعرفة والسلطة.

- **التحليل التأويلي التاريخي**: يُوظَّف هذا المنهج لقراءة نصوص الإمام زيد في سياقها الزمني والسياسي، بما يسمح بفهم الأبعاد الجدلية بين النص والواقع، وبين التأويل والسياق التاريخي الذي وُلِد فيه الخطاب الزيدي.

- **التحليل النقدي للنص**: يُعتمد لتحليل مضامين النصوص الزيدية والكشف عن علاقتها بالسلطة والمعرفة، وتفكيك البنية التأويلية التي واجهت السلطة السياسية والدينية، مع التركيز على المفاهيم المحورية مثل التحريف، النقض، الضلالة، والتقوى.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

هيكل البحث:

المبحث الأول: الإمام زيد بن علي سيرة وفكر وتأثير
المطلب الأول: سيرة الإمام زيد والظروف السياسية والفكرية المحيطة به
المطلب الثاني: ملامح عامة من فكر الإمام زيد ونقده للخطاب الديني
المطلب الثالث: موقع الإمام زيد في الفكر الإسلامي والمذهب الزيدي
المبحث الثاني: المفاهيم المحورية في خطاب الإمام زيد بن علي
المطلب الأول: "معرفة الهدى عبر الضلالة" – البنية الجدلية للمعرفة
المطلب الثاني: التحريف والنقض كأدوات تفكيك السلطة
المطلب الثالث: التقى والضلالة كثنائية لا أخلاقية
المبحث الثالث: الأركيولوجيا كأداة تحليلية لفهم خطاب الإمام زيد بن علي
المطلب الأول: مفهوم الأركيولوجيا عند ميشيل فوكو:
المطلب الثاني: استخدام الأركيولوجيا لفهم خطاب الإمام زيد
المطلب الثالث: الأركيولوجيا كأداة تحليل لا كمرجعية فكرية
المبحث الرابع: التحليل التطبيقي لخطاب الإمام زيد بن علي
المطلب الأول: تحليل النص المحوري في خطاب الإمام زيد
المطلب الثاني: التحريف كصراع سلطوي على المعنى
المطلب الثالث: مفهوم البدعة كبنية تأويلية منحرفة
المطلب الرابع: خطاب الإمام زيد كخطاب مضاد للسلطة
الخاتمة
النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: الإمام زيد بن علي سيرة وفكر وتأثير:

يُعدّ الإمام زيد بن علي شخصية مفصلية في تاريخ الإسلام، جمعت بين الانتماء العميق لبيت النبوة، والقدرة على إنتاج فكر نقدي يتجاوز الإطار المذهبي الضيق، ففي زمن احتدم فيه الصراع بين السلطة والتأويل، قدّم الإمام زيد نموذجًا لمثقف مقاوم، لم يكتفِ برفض الظلم سياسياً، بل سعى إلى تفكيك الأسس المعرفية التي قامت عليها شرعية الاستبداد، يتناول هذا المبحث ملامح من سيرته، وأبرز ملامح مشروعه الفكري، ومكانته في خريطة الفكر الإسلامي، من خلال قراءة تبرز تميّز خطابه وانفتاحه على آفاق التجديد والتأويل المغاير.

المطلب الأول: سيرة الإمام زيد والظروف السياسية والفكرية المحيطة به:

وُلد الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٧٥هـ في المدينة المنورة، في بيتٍ عُرف بالعلم والجهاد والارتباط العميق بالقرآن والسنة (الشامي، ٢٠١٥، ص ١٣)، وقد نشأ في بيئة شهدت تحولات حادة على الصعيدين السياسي والديني، حيث كانت الدولة الأموية قد بلغت أوج قوتها، بينما كانت الخلافات المذهبية والتأويلات الدينية تتخذ طابعاً رسمياً مدعوماً من السلطة (الشامي، ٢٠١٥، ص ٣٨).

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

عاصر الإمام زيد عدداً من الخلفاء الأمويين، أبرزهم هشام بن عبد الملك، واطّلع على ممارساتهم السياسية والدينية، خاصةً ما يتصل بتوظيف الدين لخدمة السلطة، وتكريس خطاب ديني رسمي يحتكر التفسير ويقصي الرؤى الأخرى، وقد أدى ذلك إلى تشكّل وعي نقدي لديه، عبّر عنه لاحقًا في أقواله ومواقفه، ليس من خلال الخطاب السياسي فقط، بل من خلال مقاربة تأويلية مغايرة للنصوص الدينية، تستند إلى رفض الانحراف التأويلي، والنقد الجذري للسلطة المعرفية السائدة (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٢٩٧).

وبالرغم من أن الإمام زيد نشأ داخل الإطار الشيعي، إلا أن خطابه تميّز بتوجهه العقلاني والمفتوح، وابتعاده عن الغلو، واهتمامه بتأصيل العدالة، وضرورة الوعي بالموروث وتفكيكه عند الحاجة (الشامي، ٢٠١٥، ص ٤٥)، ويُلاحظ أن خروجه على الدولة الأموية لم يكن فعلاً سياسياً مجرداً، بل كان ناتجاً عن مشروع معرفي متكامل، يرى أن الإصلاح لا يتحقق من دون مساءلة البنية التأويلية التي قامت عليها السلطة الدينية الحاكمة (الشامي، ٢٠١٥، ص ٤٥).

المطلب الثاني: ملامح عامة من فكر الإمام زيد ونقده للخطاب الديني:

يُعد فكر الإمام زيد نموذجاً مبكراً لما يمكن تسميته بـ"نقد الخطاب الديني"، إذ لم يكتفِ بمعارضة الحُكم الجائر أو بممارسة الفعل الثوري، بل أرفق ذلك بنقد تأويلي معمق للنصوص القرآنية والحديثية التي جرى توظيفها لخدمة الواقع السياسي (الشامي، ٢٠١٥، ص ٣٨).

فالإمام زيد لا ينظر إلى النص المقدس ككلمات معزولة، بل يرى أن النص يُنتج داخل سياق اجتماعي وسياسي، وأن قراءته لا تصح دون وعي بتاريخ التأويل ومن يقوم به، وما هي مصالحه، ولذلك، فإن مقاربته للتفسير تنطوي على دعوة لعدم الاكتفاء بالظاهر، وإنما للتفكيك والنبش في ما وراء المعنى، لفهم من حرف النص، ومن نقضه، ومن أعاد إنتاجه بما يكرّس الظلم أو يُبرّر الانحراف (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٧٣).

يمزج الإمام زيد بين المعرفة النظرية والعمل المقاوم، فالنقد المعرفي عنده ليس خطاباً نخبوياً مجرداً، بل هو فعل تغييري، لذلك، كان يُحرّض على "التفسير المغاير"، ويعتبر أن الإمساك بالحق لا يتحقق إلا من خلال الكشف عن أدوات التضليل، وهو ما يجعل من فكره نموذجاً لمقاومة معرفية، تتجاوز الحدود الفقهية إلى مساءلة البنى التأويلية التي أنتجت "الدين الرسمي".

ويُعد هذا المنهج الذي اتبعه الإمام زيد – في نقده للتأويلات المهيمنة وقراءاته المنحازة للنصوص – قريباً في جوهره مما تُسميه الدراسات الحديثة بـ"التأويل المقاوم"، وهو ذلك النمط من القراءة الذي لا يكتفي باستهلاك المعنى السائد، بل يُقاومه ويُسائل بنيته وسياقه ومقاصده السلطوية، كما يتقاطع هذا الطرح الزيدي مع ما عُرف لاحقاً في الفكر النقدي الغربي بمفهوم "القراءة الأركيولوجية للنصوص"، التي تسعى إلى الحفر في طبقات المعنى، والكشف عن الخطابات المخفية والمقصيات داخل النص، تماماً كما كان الإمام زيد يُحاول تفكيك البنية التأويلية التي أنتجت "الدين الرسمي"، وربطها بمصالح الفاعلين التاريخيين.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

المطلب الثالث: موقع الإمام زيد في الفكر الإسلامي والمذهب الزيدي:

يحتل الإمام زيد مكانة خاصة في تاريخ الفكر الإسلامي، ليس فقط باعتباره أحد أئمة آل البيت، بل كونه مفكراً نقدياً مبكراً وفاعلًا في إنتاج وعي بديل داخل الحقل الديني، وقد تميز خطابه عن غيره من المعارضين في أنه لم يتأسس على الجدل العقدي أو المذهبي المغلق، بل على قراءة تأويلية تحاول استعادة المعنى الأصيل للنصوص، وكشف ما طرأ عليها من تحريفات وتأويلات سلطوية (الشامي، ٢٠١٥، ص ٢١).

ومن هنا، فإن فكره تجاوز الانقسامات الطائفية التقليدية (الشامي، ٢٠١٨، ص ٣)، واستطاع أن يُنتج خطاباً زيدياً مفتوحًا، يستلهم من القرآن والسنّة لا لفرض قوالب مذهبية، بل لفهم الواقع وتفكيك آليات السيطرة، وتأتي أهمية الإمام زيد من كونه لم يُمارس المعارضة من خارج النسق، بل من داخله، حيث قدّم بديلاً معرفياً يُنافس الخطاب الرسمي، ويدعو إلى مراجعة جذرية لمفاهيم مثل الهدى، التقى، الضلالة، والتحريف.

ويُعد تراثه حجر الأساس لما بات يُعرف بالفكر الزيدي، الذي مثّل تياراً تأويلياً نقدياً داخل الإسلام، تميّز بموقفه الوسطي من الصحابة، واعتماده على العقل، ورفضه للتقديس المطلق لأي سلطة بشرية، وقد استمر تأثير فكر الإمام زيد في مدارس زيدية لاحقة، خاصة في اليمن، حيث تشكّلت حوله هوية دينية – معرفية ترى في التفسير المغاير سبيلًا للتحرر من الهيمنة الفكرية والسياسية (صبحي، ١٩٩١، ص ٤٥٥).

المبحث الثاني: المفاهيم المحورية في خطاب الإمام زيد بن علي:

تُعد المفاهيم في فكر الإمام زيد البنية التحتية لخطابه المعرفي، فهي لا تُستخدم بوصفها مجرد أدوات لغوية أو مفاهيم تقليدية موروثة، بل تُوظّف ضمن نسق نقدي – تأويلي هدفه تفكيك السلطة الدينية الرسمية، وكشف الآليات التي تمت عبرها إعادة إنتاج المعنى الديني في خدمة البنية السلطوية، وتتجلى أهمية المفاهيم في كونها تُقدَّم ضمن خطاب تفاعلي، يربط بين النص والسياق، بين التفسير والفعل، بين المعرفة والمقاومة، وفيما يلي أبرز هذه المفاهيم:

المطلب الأول: "معرفة الهدى عبر الضلالة" – البنية الجدلية للمعرفة:

من أشهر مقولات الإمام زيد:

"يا قارئ القرآن، فإنك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذي حرفه، ولن تمسك بالكتاب حتى تعرف الذي نقضه، ولن تعرف الهدى حتى تعرف الضلالة، ولن تعرف التقى حتى تعرف الذي تعدى" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٧٣).

هذه العبارة لا تمثّل موقفاً أخلاقياً فقط، بل تُشكل مفتاحاً تأويلياً لفهم بنيته المعرفية؛ إذ تُعبّر عن رؤية معرفية مزدوجة، ترى أن الحقيقة لا تُدرك إلا من خلال فهم نقيضها، وهو ما يشبه من حيث البنية ما يُعرف في الفلسفة الغربية بـ"الجدل السلبي" (Negative Dialectics) عند مفكرين مثل أدورنو، أو "جدلية السلطة والمعرفة" في فكر ميشيل فوكو.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

فالإمام زيد لا يقدّم المعرفة كعملية تراكمية أو نقلية، بل كممارسة نقدية تتطلب الكشف عن العوامل التي شوّهت الحقيقة، سواء بتحريف النصوص أو نقض مضامينها أو تطويعها للسياق السلطوي، لذلك، فإن "الهدى" لا يُفهم باعتباره موجوداً جاهزاً، بل كنتاج لعملية تفكيك تاريخية تحاول الكشف عن "الضلالة" التي غطّت عليه.

ومن هنا، فإن خطابه موجّه إلى القارئ لا بوصفه متلقياً سلبياً، بل فاعلاً في إنتاج المعنى، فالتلاوة الصحيحة – كما يؤكد الإمام – لا تتم إلا بالوعي بما خضع له النص من تدخلات سلطوية، وهذا يعني أن الموقف الديني لا يقوم على التسليم، بل على الشك المنهجي والتحليل الجدلي.

المطلب الثاني: التحريف والنقض كأدوات تفكيك السلطة:

من أبرز المفاهيم التي استخدمها الإمام زيد في نقده للواقع التأويلي: التحريف والنقض، وهذان المصطلحان لا يُستعملان هنا بمعناهما العقائدي فقط – كما في سياق الجدل مع أهل الكتاب – بل بمعنى نقدي بنيوي يُحيل إلى طبيعة السلطة التفسيرية نفسها.

الفرع الأول: التحريف:

يُوظف الإمام زيد مصطلح التحريف للإشارة إلى التلاعب الذي حدث في تأويل النصوص، لا من حيث تغيير ألفاظها فقط، بل من حيث إعادة إنتاج معناها بما يخدم مصالح السلطة.

قال الإمام زيد: "....زدتم ونقصتم وقدمتم وأخرتم فاشتبهت عليكم الأحاديث" (الحسني، ٢٠٠٢، ص ٣٩٤).

فالتحريف بهذا المعنى لا يعني فقط "تحويل النص"، بل إعادة توجيه المعنى، وهو ما يجعل النص ساحة للصراع، وليس وعاءً ثابتاً للحقائق.

وبناءً على ذلك، فإن الإمام زيد يدعو القارئ إلى "معرفة من حرّفه"، أي إلى قراءة النص من موقع الشك والتحليل، وليس من موقع التسليم والإذعان، لأن النص قد خضع – حسب رؤيته – لعملية إعادة بناء معرفي تحت ضغط السلطة.

الفرع الثاني: النقض:

أما النقض، فهو فعل أكثر خطورة، يتمثل في تفريغ النص من مضمونه، أو تعطيل فاعليته الأخلاقية والمعرفية، بحيث يُفقد النص قدرته على التأثير أو الإرشاد، وفي كثير من السياقات، يشير الإمام زيد إلى من "نقض الكتاب"، أي من أخرج النص من سياقه الأصلي، وألبسه لباساً تأويلياً مزيفاً.

قال الإمام زيد: "ولن تمسك بالكتاب حتى تعرف الذي نقضه"، "....قد أبحتم الدين، وعطلتم القرآن ... محوتم كتاب الله محوا" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٠٣)، "...وقد خولف كتاب الله..." (الهاروني، ٢٠٠٢، ص ١٦٥)، "...وتغيير كتاب الله..." (الأزدي، ٢٠٢٠، ص ٥٤).

من هنا، فإن التحريف والنقض معاً يُشكلان وجهين لمشروع سلطة التأويل: الأول يُعيد تشكيل ظاهر النص، والثاني يُفسد جوهره، وقد سعى الإمام زيد إلى فضح هذا المشروع، من خلال نقده للخطاب الديني السائد، ودعوته لوعي تأويلي مقاوم.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

وفي تحليل أعمق، يُمكن القول إن الإمام زيد يرى أن النص القرآني ليس فقط مرجعاً دينياً، بل ساحة صراع رمزي، ما لم يُفهم النص في سياقه السياسي والاجتماعي، فإنه سيبقى عُرضة للتأويل الفاسد، حيث تُعاد صياغة المعاني بحسب موقع المتكلم ومصلحته، من هنا تأتي أهمية عبارته: "ولن تمسك بالكتاب حتى تعرف الذي نقضه"، فالفهم السليم لا يكتمل دون إدراك من قام بتحريف المعنى أو تعطيله، أي إدراك السلطة المنتجة للمعنى.

بهذا المعنى، يُصبح التأويل فعلًا سياسيًا وأخلاقيًا في آن، ويصبح الوعي بالتاريخ، والسياق، والنية خلف الخطاب، شرطًا أساسيًا لمقاومة توظيف النص في تبرير الظلم أو إنتاج الطاعة، وهذا ما يجعل مشروع الإمام زيد، في جوهره، دعوة مبكرة إلى تحرير المعنى من قبضة التأويل السلطوي.

المطلب الثالث: التقى والضلالة كثنائية لا أخلاقية:

في قراءة الإمام زيد، لا تُفهم مفاهيم مثل "التقوى" و"الضلالة" بوصفها مفاهيم وعظية فقط، بل بوصفها أدوات داخل الخطاب الديني – السلطوي، وهذا ما يُميّز خطابه عن القراءات الأخلاقية التقليدية التي تختزل هذه المفاهيم في السلوك الفردي أو المعيار الغيبي.

الفرع الأول: التقوى:

يُعيد الإمام زيد تعريف التقوى بوصفها موقفاً معرفياً – سياسياً، لا مجرد سلوك تعبّدي، فالمُتقي، عنده، هو من يُدرك الفساد التأويلي، ويواجهه، ويقف على حقيقة النص لا على ما يُملى عليه من تفسير سلطوي، إنها حالة يقظة ووعي، لا امتثال وخضوع.

وفي رسالته إلى علماء الأمة، يكشف الإمام زيد كيف يتحوّل الصمت عن الظلم إلى مشاركة فيه، ويجعل من العالم المتقي ناقداً، لا تابعاً، مقاوماً، لا مبرراً، إنها حالة يقظة ووعي، لا امتثال وخضوع.

وفي سياقات أخرى، يربط الإمام زيد بين التقوى والعمل، قائلًا: "أفضل العبادة الورع، وأكرم الزاد التقوى، فتورعوا في دنياكم، وتزودوا لآخرتكم" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٦٧)، ويضيف: "إن الذين كرمت عليهم أنفسهم حفظوها بطاعة الله من العمل بمعصيته، وأدبوها بالقرآن، وأقاموها على حدود الرحمن..." (الرازي، ٢٠٠٤، ج١، ص ٢٣٧–٢٣٨).

فالتقوى، بهذا الفهم، ليست حالة امتثال خاضعة، بل يقظة ووعي وسلوك مقاوم، وهي، كما يمكن أن نستنتج من مجمل أقوال الإمام زيد، ليست قولاً بغير عمل، بل الإيمان المقرون بالسعي إلى إصلاح الواقع، وكشف الفساد، ومواجهة التزييف التأويلي للنصوص (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ١٣٨).

الفرع الثاني: الضلالة:

أما "الضلالة"، فهي ليست مجرد انحراف عقائدي، بل نتيجة بنية سلطوية اختارت إقصاء بعض المعاني، وتكريس أخرى، فالضال، في منظور الإمام زيد بن علي، ليس دائماً جاهلاً أو متفلتاً من الدين، بل قد يكون ضحية لخطاب تأويلي سائد، صِيغ بعناية لخدمة سلطةٍ ما.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

وهنا لا تعود الثنائية بين "التقوى والضلالة" قائمة على الأخلاق الشخصية بمعناها السطحي، بل على الموقع من المعرفة والسلطة. فـ"التقوى" في تصور زيد ليست ورعاً فردياً، بل موقفاً معرفياً نقدياً، والفرد يُصبح "تقياً" بقدر ما يُسائل النص ويقف في وجه التأويل السلطوي، ويُصبح "ضالاً" حين يكتفي بالتلقي السلبي للمعنى.

في رسالة الإمام زيد إلى علماء الأمة، نراه يضع يده على جذور هذه البنية السلطوية التي تُنتج الضلالة باسم الدين، فيقول:

"هذا مهادكم الذي مهدتموه للظالمين، وهذا أمانكم الذي ائتمنتموه للخائنين، وهذه شهادتكم للمبطلين، فأنتم معهم في النار غداً خالدون" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٠٢).

بهذا، يُستبدل المفهوم الأخلاقي التقليدي للضلالة بمفهوم معرفي – سياسي: من رضي بالظلم أو صمت عنه، ولو كان من أهل الصلاة والصيام، فهو ليس من "المؤمنين" في ميزان الإمام زيد، وقد عبّر عن هذا المفهوم ضمنياً حين قال:

"إن المؤمن من قدم أمر الله أمام نفسه وقلبه... يوالي لله ويعادي لله، يقول الحق لا تأخذه في الله لومة لائم" (المرشد بالله، ٢٠٠١، ص ١٣٤).

ويُظهر هذا الموقف أن التقوى عند الإمام زيد ليست مظهراً فردياً، بل موقف من السلطة والحق، يُبنى على رفض الظلم والسكوت عن انحراف التأويل، ففي رفضه لمذهب "الجبر" الذي روج له فقهاء الدولة الأموية لتبرير طغيان الحكام، قال:

"زعموا أن الله سبحانه وتعالى خلق الكفر بنفسه، والجحود، والفرية عليه... ثم أجبرنا عليها، فلما خلقها وجبرنا عليها... عذبنا بالنار طول الأبد" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٢١٤).

وفي موضع آخر يُهاجم العلاقة المتينة بين السلطان والعلماء الذين ساعدوه على احتكار الدين، وطمس معانيه العادلة:

"قديماً اتخذت الجبابرة دين الله دغلاً، وعباده خولاً، وماله دولاً، ووجدوا على ذلك من خونة أهل العلم من يبايعهم... فبتلك الأعوان خُطِب لأئمة الجور على المنابر، وأُسكت العالم فلا ينطق، ولا يتعظ الجاهل فيسأل" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٧٣).

يمكن قراءة هذا كله باعتباره تقاطعاً واضحاً مع ما عُرف لاحقاً في الفكر الحديث – وخصوصاً عند ميشيل فوكو – بـ"السلطة المعرفية المنتِجة للحقائق"، حيث لا تكون الحقيقة مطلقة ومتعالية، بل تُنتج داخل خطاب ترعاه السلطة، ويُديره حراس التأويل، لا أنبياؤه.

خطاب الإمام زيد بن علي، في عمقه، هو دعوة إلى نقد الخطاب الديني المتواطئ، وإلى استعادة النص من قبضة السلطة، وهو ما يجعل تجربته الفكرية والسياسية واحدة من أقدم التجليات الإسلامية لمفهوم "نقد السلطة عبر نقد التأويل".

الخلاصة: لم يكن الإمام زيد يقدم فتوى تقليدية أو موعظة أخلاقية مألوفة؛ بل كان يُؤسس لخطاب مقاومة معرفي، يتجاوز الأطر التعبدية السطحية، ليكشف آليات الهيمنة التي تُمارس باسم الدين.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

كان يُدرك أن السلطة لا تَسكن فقط في السيف، بل في الكلمة، وفي التأويل، وفي المفاهيم التي تُعاد صياغتها لخدمة القهر وتبرير الاستبداد.

إن إعادة تأويل المفاهيم – كما في ثنائيتي التقوى والضلالة – ليست مجرد اجتهاد فقهي، بل هي معركة فكرية، لأن من يُسيطر على المعنى، يُسيطر على المصير.

وهكذا، يضع الإمام زيد أسسًا مبكرة لما يمكن تسميته بـ"نقد السلطة عبر نقد التأويل"، في وعيٍ ثوري يُلاقي ما سيُعرف لاحقًا في الفكر الحديث بمفهوم السلطة المنتِجة للحقيقة، كما عند فوكو.

المبحث الثالث: الأركيولوجيا كأداة تحليلية لفهم خطاب الإمام زيد بن علي:

يمثل الخطاب الديني في فكر الإمام زيد بن علي بنية متعددة الطبقات، تتداخل فيها النصوص القرآنية، والتأويلات الموروثة، والمواقف السياسية والاجتماعية، ومن أجل مقاربة هذا الخطاب، تتطلب العملية البحثية أداة تحليلية قادرة على تفكيك هذه الطبقات وتعرية البُنى المعرفية الكامنة خلفها، وفي هذا السياق، تُطرح الأركيولوجيا – بوصفها منهجاً نقدياً – كإطار مساعد لتحليل خطاب الإمام زيد، وليس كمرجعية خارجية تفرض عليه قوالب جاهزة، إذ إننا لا نُسقط الأركيولوجيا على النص الزيدي، بل نستثمرها في تفكيك تشكّل المعرفة الدينية في ظل السلطة، وهي الغاية التي التقاها الإمام زيد من داخل نسيجه الفكري والإسلامي.

المطلب الأول: مفهوم الأركيولوجيا عند ميشيل فوكو:

طرح ميشيل فوكو، في كتابه "أركيولوجيا المعرفة" (١٩٦٩)، مقاربة مغايرة للتاريخ الفكري التقليدي، تقوم على تفكيك الخطاب لا تأريخه، فبدلاً من تتبع الأفكار ونُضجها أو تحليل نوايا أصحابها، انشغل فوكو بالسؤال: "من يُنتج الخطاب؟ في أي سياق؟ وفق أي شروط؟ وما الذي يُقصى منه؟" (فوكو، ١٩٨٧، ص ٢١ وما بعد).

الأركيولوجيا – وفق فوكو – ليست بحثاً في مضمون القول، بل في نظامه الداخلي، في بنيته الخفية، وفي الشروط التي جعلت قولًا ما ممكنًا في زمن معين، بينما تم إسكات غيره، وهي تبتعد عن ثنائية "الحقيقة والخطأ"، وتركّز على "آليات إنتاج المعرفة" وكيف يُعاد إنتاجها لخدمة بنى سلطوية.

في هذا السياق، يصبح النص، والخطاب الديني تحديداً، ليس مجرد حامل للمعاني، بل ميدانًا للصراع الرمزي، حيث تُنتج السلطة نسقًا من القول يؤسس لشرعيتها، ويُقصي الأقوال الأخرى بوصفها "ضلالاً"، "بدعةً"، أو "خروجاً عن الإجماع".

المطلب الثاني: استخدام الأركيولوجيا لفهم خطاب الإمام زيد:

إن دراسة خطاب الإمام زيد باستخدام الأركيولوجيا لا تعني فرض منهج غربي على نص تراثي، بل تمثّل التقاء مشروعين نقديين، يتشابهان في الهمّ الفكري وإن اختلفت السياقات.

ففي حين سعى ميشيل فوكو، كمفكر غربي، إلى تفكيك الخطابات التي أنتجت الحداثة والمعرفة في أوروبا وربطها بالبُنى السلطوية، مارس الإمام زيد بن علي، من داخل المنظومة الإسلامية، نقداً تأويلياً موازياً، استهدف فيه البُنى السلطوية التي استعملت الدين لتثبيت الهيمنة السياسية.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

هذا اللقاء المنهجي بين "الهمّ الفوكوي" و"الهمّ الزيدي" يتمثل خصوصاً في سؤال جوهري مشترك:
من يملك حق إنتاج المعنى؟ ومن تمّ إقصاؤه؟ ولماذا؟
يقول الإمام زيد:
"لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذي حرفه... ولن تمسك بالكتاب حتى تعرف الذي نقضه".
هذا القول لا يُفهم كمجرد وعظ أخلاقي، بل كسؤال معرفي عميق يوازي ما يسميه فوكو بـ"شروط الإمكان الخطابية" – أي الظروف التاريخية والسلطوية التي جعلت قولاً ما ممكناً، وأقصت أقوالاً أخرى.

توظيف الأركيولوجيا في فهم خطاب الإمام زيد يُفيد في ثلاثة مستويات:

الأول: تفكيك طبقات الخطاب الزيدي: إذ لا يُفهم خطاب الإمام زيد كردّ سياسي ظرفي، بل كمشروع تأويلي بنيوي، يسعى لإعادة إنتاج المعنى من داخل النص القرآني.
الثاني: قراءة النص في سياقه السلطوي: الإمام زيد واجه تأويلات مؤسسية أنتجت "ديناً رسمياً"، نزع من الدين عدالته، وأبقى على طاعة الحاكم.
الثالث: كشف الصمت والغيات: من خلال مساءلة "المسكوت عنه"، يتكشّف أن كثيراً من التفاسير تم تكييفها لحماية السلطة، لا نصرة الحق.
يقول الإمام في رسالته لعلماء الأمة: "قد أبحتم الدين، وعطلتم القرآن، فعاد علمكم حجة لله عليكم".
وهذا يتقاطع مع ما يسميه فوكو "نقد خطاب الحقيقة"؛ أي كشف تواطؤ المعرفة مع السلطة.
فالإمام زيد لا يهاجم الدين، بل يُهاجم احتكار تأويله، لا يطرح بديلاً لاهوتياً فقط، بل بديلاً معرفياً مقاوماً يسائل التأويل من حيث هو نتاج صراع لا وحيٌ منزّه.

المطلب الثالث: الأركيولوجيا كأداة تحليل لا كمرجعية فكرية:

من المهم التأكيد أن هذا البحث لا يُقدّم الإمام زيد بوصفه "فوكويًّا قبل فوكو"، بل يؤكد على استقلال خطابه ومنطقه التأويلي الإسلامي، غير أن تقاطع بعض أدوات التحليل بين فكر الإمام زيد وفكر فوكو يسمح بتوظيف الأركيولوجيا بوصفها أداة منهجية، لا كمرجعية فكرية عليا،
فخطاب الإمام زيد يُمارس النقد الأركيولوجي بطريقة أصيلة من داخل الثقافة الإسلامية، من خلال:
- مساءلة السلطة التفسيرية.
- تحليل بنية الخطاب الرسمي.
- استنطاق النصوص الدينية من موقع المقاومة.
- تفكيك الوظيفة السياسية للمعنى.

وهذا ما يجعل الأركيولوجيا نافعة في كشف طبقات التأويل التي واجهها الإمام، سواء على مستوى النصوص أو على مستوى مؤسسات إنتاج الفهم الديني.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

يمكن تلخيص ذلك بالقول: مارس الإمام زيد "نقداً أركيولوجياً" قبل أن تُصاغ أدواته فلسفياً، وقد أظهر ذلك من خلال وعيه بأن الدين، في حال غيابه عن العدل، يمكن أن يُصبح وسيلة تبرير للظلم، وأن "التحريف" و"الضلالة" ليسا مجرد أخطاء دينية، بل تمظهرات لهيمنة خطاب سلطوي.

مقارنة منهجية بين فوكو وزيد:

الإمام زيد	فوكو
يسأل: من حرفه؟ من أعاد تأويله؟	يسأل: ما الذي جعل هذا القول ممكناً؟
يكشف آليات تزييف النص لصالح السلطة	يكشف آليات إنتاج المعرفة السلطوية
يستخدم النص لكشف تواطؤ العلماء	يستخدم الأركيولوجيا لنقد الحداثة
يربط الدين بالعدالة، لا بالطاعة	يربط الحقيقة بالخطاب

المبحث الرابع: التحليل التطبيقي لخطاب الإمام زيد بن علي:

يقوم هذا المبحث على تحليل نصوص الإمام زيد بوصفها تعبيراً حيّاً عن رؤيته النقدية للخطاب الديني، ولا يكتفي التحليل هنا بمستوى اللغة أو البناء الخطابي، بل يتوسع للكشف عن البُنى المعرفية والسياسية التي تتأسس عليها نصوصه، معتمداً في ذلك على المنهج الأركيولوجي لفهم طبقات المعنى، وتداخله مع السلطة والتأويل.

المطلب الأول: تحليل النص المحوري في خطاب الإمام زيد:

"يا قارئ القرآن، فإنك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذي حرفه، ولن تمسك بالكتاب حتى تعرف الذي نقضه، ولن تعرف الهدى حتى تعرف الضلالة، ولن تعرف التقى حتى تعرف الذي تعدى".

الفرع الأول: البنية الخطابية:

النص ذو طابع إنشائي موجّه مباشر، يستخدم أسلوب النفي المتكرر المرتبط بشرط معرفي:

"لن تتلو... حتى تعرف"، "لن تمسك... حتى تعرف"، "لن تعرف... حتى تعرف...".

هذا البناء الإيقاعي لا يُعبّر فقط عن شرطية معرفية، بل يؤسس علاقة تربوية نقدية بين القارئ والنص، تقوم على وعي بالتحريف التاريخي الذي شاب النص المقدس، وتدعو إلى تلاوة مشروطة بالتحقيق لا التقديس المجرد.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

الفرع الثاني: المفاهيم المفتاحية ودلالاتها:

العبارة	الدلالة المعرفية – السياسية
الذي حرفه	فاعل تأويلي قام بتحوير النص لمصلحة سلطوية
الذي نقضه	من أفرغ النص من معناه الأخلاقي والسياسي
الضلالة	ليست انحرافًا عشوائيًا بل نتيجة بناء معرفي سلطوي
التعدي	ممارسة للسلطة باسم الدين – أي استغلال المقدس في القهر السياسي

تُشير هذه المفاهيم مجتمعة إلى وعي نقدي متقدّم لدى الإمام زيد، يُعلي من شأن القارئ اليقظ، الذي لا يُسلّم بالنص كما ورثه، بل يُفكّك طبقات التفسير السلطوي التي تراكمت عليه، ويُعيد النظر في السلطة الكامنة خلف كل تأويل.

وبهذا، لا يبقى خطاب الإمام زيد مجرد دعوة للورع أو الإصلاح، بل يتحوّل إلى مشروع تفسير بديل، يربط بين المعنى والمعاناة، ويرى أن "التلاوة الحقّة" لا تتحقق إلا عبر تحليل تاريخي وسياسي للنص، يكشف من حرفه، ومن نقضه، ولماذا تم إقصاء بعض القراءات لحساب أخرى.

المطلب الثاني: التحريف كصراع سلطوي على المعنى:

يرى الإمام زيد أن "التحريف" لا يتمثل في مجرد تحوير لفظي أو حذف آيات، بل في إعادة إنتاج الخطاب الديني بما يخدم مصالح الحاكم، وهو في هذا المعنى يتحدث عن "سلطة تفسيرية" تنشئ المعنى وتُقصي المعاني الأخرى.

الفرع الأول: التحريف بوصفه إنتاجاً لمعرفة رسمية:

النصوص المقدسة في السياق السياسي الإسلامي المبكر أصبحت مجالاً للتفاوض الرمزي، فبدلاً من أن تُستخدم في بناء عدالة اجتماعية، استُخدمت في تبرير سياسات الظلم والإقصاء، وقد مثّل التحريف هنا آلية تأسيسية لبناء خطاب ديني مهيمن.

الفرع الثاني: التحريف وإعادة تشكيل المقدّس:

وفق التحليل الأركيولوجي، فإن التحريف ليس مجرد خيانة للنص، بل تحوّل في بنيته التداولية: يصبح النص شيئاً آخر غير ما بدأ به، وتُخلق حوله طبقات من التأويل الرسمي، تجعله أداة تبرير لا مقاومة.

وفي هذا السياق، يمكن القول إن التحريف لا يقتصر على التشويه النصي، بل هو تحوّل بنيوي في وظيفة النص: من الهداية إلى التبرير، والإمام زيد لم يتعامل مع القرآن كنص ميت مغلق على دلالاته، بل ككائن حيّ، يخضع لتفاعلات السلطة والمعنى، وقد صرّح في إحدى رسائله قائلاً: "محوتم كتاب الله محوا، وضربتم وجه الدين ضربا" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٠٣).

وهذا المحو لا يعني بالضرورة التلاعب الحرفي، بل يُحيل إلى عملية أيديولوجية تُعيد تشكيل وظيفة النص ضمن سياق سلطوي، ويتجلى ذلك بوضوح في المثال الذي واجهه الإمام زيد مع خطاب بني أمية، حين وظّفوا فكرة "القدر" لتبرير الجور السياسي، وهو ما رد عليه زيد بن علي قائلاً:

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

"ما هذه صفة أحكم الحاكمين، بل خلقهم مكلفين مستطيعين محجوجين مأمورين منهيين، أمرنا بالخير ولم يمنع منه، ونهى عن الشر ولم يغر عليه..." (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٢١٥).

وفي هذا الرد، لا يستعيد الإمام النص فقط، بل يستعيد معه وظيفته الأصلية كأداة مقاومة أخلاقية، إنه يُفكّك بنية التحريف بإرجاع النص إلى طاقته التحررية الأولى، ويربط هذا التحريف بعملية إنتاج "مقدّس" رسمي يتماهى مع مصالح الدولة، لا مع قيم السماء.

المطلب الثالث: مفهوم البدعة كبنية تأويلية منحرفة:

لا يتعامل الإمام زيد مع "البدعة" كمجرد حكم شرعي تقليدي يهدف إلى ضبط السلوك العقدي، بل يُعيد تأطيرها كمفهوم معرفي- سلطوي يُستخدم لإقصاء التأويلات المعارضة، وتثبيت قراءة واحدة للنصوص تُقدَّم على أنها الحقيقة المطلقة.

الفرع الأول: من العقيدة إلى السلطة:

البدعة – في خطاب الإمام زيد – ليست خروجاً عن الدين بالضرورة، بل تُنتَج أحيانًا داخل النظام التأويلي نفسه، وتُستخدم كأداة لإقصاء تأويلات تُهدّد هيمنة السلطة أو تكشف انحرافها عن القيم الأصلية للنصوص. إنها ليست فقط انحرافًا عن الأصل، بل أيضًا إنشاءٌ لأصل مزيف يخدم السلطة.

في هذا الإطار، يرى الإمام زيد أن البدعة ليست مجرد مخالفة للسنة، بل هي آلية تأويلية تُستخدم لتثبيت معنى أحادي وإقصاء أي قراءة تحررية أو مقاومة، فهي بهذا المعنى، أداة سلطة أكثر منها أداة تمييز بين الصواب والخطأ.

وقد صرّح الإمام زيد في إحدى مناظراته قائلاً:

"قد أبحتم الدين،...هذا مهادكم الذي مهدتموه للظالمين، وهذا أمانكم الذي ائتمنتُموه للخائنين، وهذه شهادتكم للمبطلين!" (الهاشمي، ٢٠٠١، ص ٣٠٢).

هذا القول يفضح بوضوح آلية الاستعمال السلطوي للدين، حيث تتحول مفردة "البدعة" إلى سلاحٍ لغوي يُقصي الآخر بدعوى الانحراف، بينما الانحراف الحقيقي يكمن في تحويل الدين إلى أداة هيمنة.

الفرع الثاني: خطاب البدعة كخطاب تأويلي بديل:

في السياق الزيدي، لا يُفهم خطاب البدعة كجزء من بنية لاهوتية معزولة، بل يُحلّل كما تُحلّل النصوص الأخرى: بمراعاة من قال به، وفي أي سياق، ولأية غاية، وهذا يتقاطع مع التحليل الأركيولوجي (على غرار فوكو) الذي يرى أن الخطاب لا ينقل الحقيقة فقط، بل يُنتجها ضمن علاقات القوة.

كما يرى فوكو أن "الخطاب الصحيح" لا تحدّده الحقيقة بل من يملك سلطة قولها، فإن الإمام زيد يُظهر كيف أن مفاهيم مثل "السنة" و"البدعة" لا تنفصل عن ميزان السلطة؛ فهي تتشكّل وتُعاد صياغتها بحسب الموقع السياسي لمن يُطلقها.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

بذلك، تتحوّل البدعة من توصيف ديني إلى خطاب تأويلي بديل، لا يُقصى لأنه خاطئ بالضرورة، بل لأنه يُعرّي النظام القائم أو يُزعزع بنيته الرمزية، إنه خطاب يحمل داخله رؤية أخرى للعقيدة والمجتمع، وغالباً ما يكون مرفوضاً لأنه لا يخدم مركز السلطة، لا لأنه مخالف للنص.

المطلب الرابع: خطاب الإمام زيد كخطاب مضاد للسلطة:

يمثّل خطاب الإمام زيد حالة نموذجية للمقاومة المعرفية، إذ لم تكن معارضته للسلطة مقتصرة على الجانب السياسي، بل امتدت إلى ميدان إنتاج المعنى نفسه، لقد خاض معركته التأويلية من داخل الحقل الديني، لا من خارجه، في محاولة لاستعادة وظيفة النصوص الأصلية، وتحريرها من قبضة التفسير السلطوي.

الفرع الأول: منازعة السلطة على التأويل:

لا يدعو الإمام زيد إلى مجرد ثورة سياسية، بل إلى ثورة تفسيرية في العمق؛ ثورة تستعيد المعنى من بين أنقاض التبرير الرسمي، وتُعيد ربط النصوص بقيم العدل والتحرر.

وقد صرّح في خطابه يوم الثورة:

" إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وآله سلم - وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء" (الطبري، ١٣٨٧هـ، ج٧، ص ١٧٢).

هذه العبارة تُبرز أن خروجه لم يكن فقط ضد الحاكم، بل ضد المنظومة التي أعادت إنتاج الدين كغطاء للظلم، فثورة الإمام زيد كانت ثورة على التفسير كما كانت ثورة على السياسة.

من هنا، لا يمكن فهم دعوته بمعزل عن مشروعه المعرفي، الذي أراد من خلاله استعادة المعنى الأصلي للنصوص، خارج دوائر الفقه الرسمي الذي عطّل رسالتها التغييرية.

الفرع الثاني: التفسير بوصفه معركة فكرية:

في هذا السياق، يتحوّل التفسير عند الإمام زيد إلى فعل تحرري ومقاوم، إنه ليس مجرد شرح لغوي أو بيان فقهي، بل مواجهة رمزية مع النظام التأويلي للسلطة.

ومن أبرز أمثلة تأويلاته المقاومة:

ربطه بين "الفيء" والعدالة الاقتصادية، حيث اعتبر أن توزيع المال لا يجب أن يكون لشراء الولاء، بل لإحقاق الحقوق.

إعادة تعريفه للتقوى كموقف مقاوم، لا كحالة سكون فردي.

تفسيره للجهاد باعتباره مقاومة للظلم الداخلي، لا فقط قتالاً لعدو خارجي.

وكما يرى فوكو أن "السلطة لا تُمارس فقط عبر السلاح بل عبر الخطاب"، فإن الإمام زيد يقدّم نموذجًا مبكرًا لذلك: تحرير المعنى هو أوّل طريق إلى تحرير المجتمع.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

الخاتمة:

يتّضح من خلال هذه الدراسة أن خطاب الإمام زيد بن علي لا يمكن اختزاله في كونه مجرد موقف معارض للسلطة الأموية، بل يتجاوز ذلك إلى كونه مشروعًا معرفيًا نقديًا متكاملًا، سعى إلى مساءلة البنية التأويلية التي تشكلت حول النصوص الدينية، وفكك العلاقة بين السلطة والمعنى، فالإمام زيد لم يكتفِ برفض الظلم السياسي، بل توجه نحو جذوره المعرفية، حيث كشف عن آليات التحريف والنقض التي أُخضعت لها النصوص بهدف خدمة السلطة وتثبيت شرعيتها.

ومن خلال توظيف منهج الأركيولوجيا، أمكن فهم الخطاب الزيدي بوصفه خطابًا ذا بنية نقدية مركبة، يحاور النص من داخله، ويكشف عن المسكوت عنه، ويُعيد وصل الدين بالعدالة، والتفسير بالتحرر.

النتائج:

خطاب الإمام زيد ذو طابع تأويلي نقدي يركّز على كشف آليات التحريف وإعادة إنتاج النصوص في سياقات سلطوية، وهو خطاب سابق في وعيه البنيوي على العديد من المناهج النقدية الحديثة.

- التحريف والنقض في فكر الإمام زيد ليسا مجرد مفاهيم عقائدية، بل أدوات تحليل تكشف التلاعب المعرفي بالنصوص وتفريغها من مضامينها التحررية.
- ثنائية الهدى/الضلالة والتقى/التعدي تُقدَّم في إطار معرفي – سياسي لا أخلاقي فقط، ما يشير إلى قراءة متجاوزة للوعظ التقليدي نحو مساءلة إنتاج المعنى.
- البدعة في فكر الإمام زيد ليست خروجا عن الأصل فحسب، بل عملية إقصاء معرفي للخطابات المقاومة، وإنتاج لشرعية زائفة بديلة.
- المنهج الأركيولوجي أتاح تفكيك بنية الخطاب الزيدي، مما بيّن أن هذا الفكر مارس تفكيكًا تأويليًا أصيلًا للسلطة من داخل المرجعية الإسلامية.
- خطاب الإمام زيد يمثل نموذجًا مبكرًا للمثقف المقاوم الذي يربط بين الفعل السياسي والنقد المعرفي، ويناهض الهيمنة لا من خارجها بل من داخل الحقل التأويلي ذاته.

التوصيات:

- ضرورة إعادة قراءة التراث الإسلامي بعيون نقدية تأويلية تستلهم من فكر الإمام زيد النماذج المقاومة للهيمنة، لا تلك المكرّسة لها.
- توظيف المناهج الحديثة مثل الأركيولوجيا في دراسة الخطابات الإسلامية التراثية لفهم بنيتها العميقة بعيدًا عن القراءات السطحية أو التبجيلية.
- تشجيع دراسات مقارنة بين مفكرين إسلاميين نقديين وبين التيارات النقدية الغربية لإبراز تقاطعات الفكر النقدي عبر الثقافات.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317

- الاستفادة من نموذج الإمام زيد في تكوين عقلية تأويلية جديدة داخل الفكر الديني المعاصر، عقلية لا ترى النصوص مقدسة بوصفها "كلمات"، بل بوصفها "فضاءً للصراع الرمزي".
- تضمين خطاب الإمام زيد في المناهج التعليمية الزيدية والإسلامية العامة بصفته مشروعًا فكريًا تحرريًا، لا فقط رمزًا مذهبيًا.

1- Data Availability Statement: (The manuscript includes all the data used in the study.)
2- Conflict of Interest Statement: (The authors confirm that there are no conflicts of interest that could affect the content of this research.)
3- Funding Statement: This research was fully funded by the authors without any financial support from other entities.

المصادر والمراجع:

١- الأزدي، لوط بن يحيى. (٢٠٢٠). أخبار الإمام زيد. دون ناشر.
٢- الحسني، أحمد بن إبراهيم. (٢٠٠٢). المصابيح في السيرة (الطبعة الثانية). مؤسسة الإمام زيد.
٣- الرازي، منصور بن الحسين. (٢٠٠٤). نثر الدر في المحاضرات (الطبعة الأولى). دار الكتب العلمية.
٤- الشامي، جمال. (٢٠١٥). الإمام زيد بن علي: حياته وفقهه وتأثيره (النسخة الثانية). دون ناشر.
٥- الشامي، جمال. (٢٠١٨). جهود الزيدية في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية (النسخة الثالثة). دون ناشر.
٦- صبحي، أحمد محمود. (١٩٩١). في علم الكلام – الزيدية (الطبعة الثالثة). دار النهضة العربية.
٧- الطبري، محمد بن جرير. (١٣٨٧هـ). تاريخ الطبري (الطبعة الثانية). دار التراث.
٨- فوكو، ميشيل. (١٩٨٧). أركيولوجيا المعرفة (الطبعة الثانية). المركز الثقافي العربي.
٩- المرشد بالله، يحيى بن الحسين. (٢٠٠١). الأمالي الخميسية (الطبعة الأولى). دار الكتب العلمية.
١٠- الهاروني، يحيى بن الحسين. (٢٠٠٢). تيسير المطالب في أمالي أبي طالب (الطبعة الأولى). مؤسسة الإمام زيد.
١١- الهاشمي، زيد بن علي. (٢٠٠١). مجموع رسائل الإمام زيد (الطبعة الأولى). مكتبة أهل البيت.

ISSN (Print): 1994-8999, ISSN (online): 2664-469X. DOI Prefix: 10.36317